العدد (1323) الاثنين (15) أيلول 2008
NO. (1323) Mon . (15)Sep.

الملك فيصل الأول يقوم بمصالحة بين الرصافي والزهاوي

نصيف الناصري

الشاعر معروف عبد الغني الرصافي يقف مع المشيعين على قبر الزهاوي ويلقي قصيدة في وداعه عام ١٩٣٦

شهدت الحياة الأدبية ببغداد في سنوات العشرينيات من القرن الماضي مشاحنات ومعارك أدبية كبيرة بين الشاعرين العراقيين معروف عبد الغني الرصافي وجميل صدقي الزهاوي . في الصحافة الصادرة آنذاك كانت أسباب هذه المعارك كثيرة ، منها ماهو موضوعي يخص الشعر وزعامته والثقافة بشكل عام ، ومنها ما هو شخصي يتعلق بمزاج الرصافي ومواقفه الحادة أحياناً من الملك فيصل الأول ورجال السياسة في العراق ، نقيض الزهاوي الذي كان يحظى بقبول من البلاط الملكي والحكومات العراقية . كان للرصافي أنصاره من الكتاب والشعراء مثلما كان للزهاوي أنصاره أيضاً ، وقد أمتلأت الصحف البغدادية في بعض الأحيان بأخبار المعارك والمقالات والردود التي تناولت الخصومة الشديدة بين الشاعرين الكبيرين ، وكان نصيب الزهاوي من النقد والتجريح أكثر من الرصافي وحين دخل الأديب المصري العقاد في هذه الخصومة نشر في ﴿ البلاغ ﴾ المصرية عام ١٩٢٧ رأياً شكك فيه بشاعرية الزهاوي وقال فيه ﴿انه صاحب ملكة علمية من طراز رفيع ، وانه يصيب في تفكيره ما طرق من المسائل التي يجتزئ فيها بالاستقراء والتحليل ، ولا تفتقر الى البديهة والشعور، فمن ينشده فلينشده عالماً ينظم ، أو يجنح الى الفلسفة ، فهو قمين باصغاء اليه واقبال عليه في هذا المجال ، وإن خير مكان له هو بين رجال العلوم والقضايا المنطقية ، فهو لا يبلغ بين الفلاسفة والشعر مثل ذلك المكان ﴾. عندما وصلت ﴿ البلاغ ﴾ بغداد وقرأها الزهاوي وهو الشاعر الفيلسوف استشاط غيظاً وهو يقرأ ما كتبه العقاد في حقه مما منح فرصة كبيرة لأنصار الرصافي في الهجوم عليه. وما ان اصدر العقاد ديوانه ، كانت لحظة الثأر قد حانت عند الزهاوي فراح يهاجم ويسخر ويشكك في شاعرية العقاد عبر سلسلة طويلة من المقالات من دون توقيع نشرها في مجلة ﴿ لسان العرب ﴾ لصاحبها الأب انستاس ماري الكرملي واعتقد القراء والعقاد أن كاتب المقالات هو صاحب المجلة الأب انستاس الكرملي . كان الملك فيصل الأول يحرص دائماً على وحدة العراق والتقريب بين قومياته ومذاهبه ولا يحب الخصومات بين الناس والطوائف، وحين اشتدت المعارك بين الرصافي والزهاوي وأنصارهما وخرجت عن نطاقها الأدبي والثقافي ، ارتأى الملك أن يقوم بمصالحة وطنية تجمع الشاعرين المتخاصمين بإقامة وليمة عشاء في قصره ، وهكذا تمت دعوتهما الى القصر الملكي حيث كانت وليمة العشاء ديك رومي محشي بالرز واللوز والكشمش . بعد وليمة الملك التي أصلحت بينهما وكانت مصالحة وطنية بحق انتهت الخصومة الى الأبد.

الملك فيصل الاول

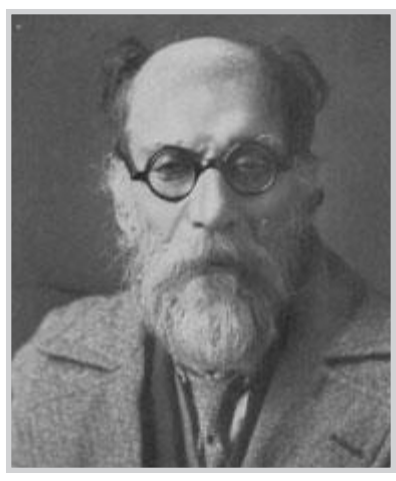

الزهاوي

الرصافي

ما يهمنا الآن بعد هذا الزمن الطويل هو الحب وصداقة الشعر . لم أجد في ديوان الرصافي ما يسيء الى الزهاوي، بل وجدت قصيدتين واحدة في مديحه قالها في حفلة تكريم له والأخرى في رثائه حين مات عام ١٩٣٦، أقدم هنا الى القارئ الكريم قصيدة المديح وقصيدة الرثاء:

في حفلة الزهاوي

أرى بغداد من بعد إغبرارِ
زهت بقدوم شاعرها الزهاوي
زهت بكبيرها أدباً وعلماً
زهت بطبيب علّتها المداوي
وكادت مصر تسبقها فخاراً
به لو ظلّ وهو هناك ثاوِ
ولكن عاد محتبقاً إليها
فخار الأرض والشرف السماوي
فأهلاً بالحكيم وألف أهل
بمن لا زال مرشد كل غاوِ
وما الآداب في بغداد لولا
يراع جميلها إلاّ دعاو
إذا ما قال في بغداد شعراً
رواه له بأقصى الأرض راوِ
تفرّد في بديع الشعر معنى
فجلّ عن المعادل والمساوي
أعيذك يا جميل الشعر من أن
يسوءك نقد أرباب المساوي
يداوون السقيم من المعاني
بفهم كان أجدر بالتداوي
ألا لا تعجبنّ وهم ذئاب
إذا هم أفزعوك بصوت عاوِ
لقد نقدوا قريضك نقد أعمى
يدل على الضغائن في المطاوي
فأحم لهم حديد الشعر حتى
تُذيق نفوسهم حرَّ المكاوي
فهم قوم يرون الحلم عجزاً
إذا ما ناوؤك ولم تناوِ
ولا تضربهم إن شئت إلاّ
بضغث من نبات الشعر ذاوِ
فهم مثل الذبابِ يطير ذعراً
بهز مذبة وهويِ هاوِ
وليسوا محوجيك إلى معين
وهم ما بين مهزول وضاوِ
فنفخ منك يجعلهم هباء
ويسقطهم إلى سفلى المهاوي
وما أحتاج القوي إلى معين
إذا كان لضعيف هو المقاوي .

في تأبين الزهاوي

أيها الفيلسوف قد عشت مضنى مثل ميبٍ ،
وصرت بالموت حيّا
ما حياة العظيم إلاّ خلود
بعد موتٍ يكون للجسم طيّا
سوف يبقى على الورى لك ذكر ناطق بالبقاء لم يخش عيّا
أنت فرد في الفضل حياً وميتاً
حزت في الحالتين قدراً عليا
سوف أبكي عليك شجواً وإني
بك قد كنت في الحياة شجيّا .

حكاية بغدادية أغرب من الخيال

عادلة خاتون جدها وأبوها وزوجها كانوا ولاة لبغداد أيام العثمانيين !

تحتفظ الذاكرة البغدادية باسماء نساء مشهورات،كان لهن دور معروف في مجرى الحياة السياسية والاجتماعية التي كانت سائدة، قبل نحو (٤٠٠) سنة، يوم كانت بغداد،والعراق يقعان تحت السيطرة العثمانية ولعل اسم (عادلة خاتون) يعد من تلك الاسماء النسوية اللامعة، التي كان لها شهرة واسعة امتدت من القرن السابع عشر الميلادي، واستمرت حتى يومنا الحاضر، اذ مازال اسم هذه (الخاتون) البغدادية التركية يتردد في حياة بغداد اليومية، فهذا جامع عادلة خاتون الصغيرة في شارع النهر مازال قائماً وذاك جامعها الكبير في العيواضية قرب جسر الصرافية غدا معلماً تراثياً يشار اليه في خطط بغداد وعماراتها وبالمقابل فأن عشرات الاملاك العقارية التي من بينها الخانات والمدارس والبيوت،والسبيل خانة والمحلات التجارية تحمل اسم وقف عادلة خاتون خاصة تلك الواقعة منها في قلب منطقة بغداد / الرصافة القديمة

اذا .. من هي هذه المرأة البغدادية الثرية، والمحسنة من تكون..؟ لاسيما اذا ماعرفنا انها عاشت في فترة حكم (المماليك) في العراق، فهي بنت والي بغداد وجدها والي بغداد، وزوجها والي بغداد ايضاً

فمعظم المصادر التاريخية التي ارخت لفترة حكم المماليك في العراق تشير إلى ان والي بغداد حسن باشا بن مصطفى بيك كان (سباهياً) في جيش السلطان مراد الرابع، الذي فتح بغداد وطرد الفرس منها، سنة (١٧٠٤) م، وبعد وفاته سنة (١٧٢٣) تولى امر الولاية بعده ولده (احمد باشا) والد (عادلة خاتون) ذي الصيت العالي،والغنى الفاحش والاملاك الواسعة ..

ففي احد ايام الجمع من حكم والدها أحمد باشا كانت (عادلة) الشابة ترافق والدها الوالي في جولة ساحة (الميدان) في بغداد حيث يوجد فيها سوق لبيع (الرقيق) يكون مكتظاً بالزبائن كل يوم جمعة، وبينما كانت تتجول فيه فتى وسيم بهي الطلعة، كان معروضاً للبيع، وعندما امعنت النظر فيه قررت ان تشتريه وفعلا اشترته ليصبح مملوكاً لها وهكذا اخذته لتضمه إلى بيت اسرة والدها والي بغداد ليتربى ويختلط مع ابناء الاسرة الحاكمة وليتدرب على فنون الفروسية و(اتكيت) حياة القصور حتى قوي ساعده عندها قررت (الخاتون) عتق هذا المملوك من الرق والعبودية بل صيرته كاتماً لاسرار والدها أحمد باشا..

وتشير المصادر الى ان أحمد باشا كان في زيارة لاثار (عكركوف) غربي بغداد، والواقعة بين اشجار النخيل والغابات الكثيفة وفي اثناء المسير هجم (اسد) هائج على موكب الوالي ، فما كان من هذا الشاب (سليمان) المملوك سابقاً ذوي العضلات المفتولة الا ان يباغت ذلك الاسد الكاسر ويهجم عليه ويتمكن منه بأعجوبة لافته للنظر حيث قضى على ذلك الاسد في مكانه.. ولم يكتف بهذا بل جلب الاسد القتيل (مجندلا) على حصانه حتى وصل به الى بيت الوالي وسط دهشة وتعجب الناس بهذه البطولة الخارقة التي قام بها هذا الفتى وعندما تيقن أحمد باشا تماماً من بطولة فتاه واعجابه به.. تقدمت (عادلة خاتون) إلى ابيها الوالي وقالت له : هذا زوجي يا أبي .. واشارت بأصبعها الى سليمان ..!

ولم يكن أمام الوالي سوى الاذعان لرغبة ابنته والموافقةعليها فوراً وفعلاً تزوج (سليمان) من عادلة وهي في الرابع والثلاثين من عمرها ،بالرغم من اعتراض واستنكار قائد الفيلق العسكري التركي الرابع، لهذه الخطوبة وزواج هذا الفتى المملوك بالامس من ابنة والي بغداد !وعلى الرغم من كل تلك المعارضات كظمت عادلة خاتون غضبها وقررت ان تنتقم من هذا القائد شر انتقام فما كان منها الاان دست له السم من خلال أقامتها مأدبة عشاء كبرى على شرفه وضعت قطرة (سم) في صحن طعام القائد المعترض على زواجها غير المتكافئ.. وبهذه الطريقة تخلصت عادلة خاتون من غريمها

ودارت الايام .. وبعد وفاة والدها أحمد باشا اصبح زوجها سليمان بيك والياً جديداً على بغداد خلفاً لعمه حدث هذا في عام ١٧٤٩ وبتولي سليمان بيك الولاية، دخل العراق عصر حكم المماليك الذي استمر قرابة قرن وانتهى في سنة ١٨٣٣ وكان (داود باشا) آخر ولاة المماليك في بغداد، وفي زمنه شيد جامع (الحيدر خانة) الشهير في شارع الرشيد.. وقد اجمعت معظم كتب التاريخ التي ارخت لفترة حكم

المماليك في العراق على ان سليمان بيك هذا كان واليا قويا

وذو ارادة لاتلين، فقد كان يسهر على ضمان امن رعيته وحقوقهم،حيث كان يخرج ليلا بمعية عدد من رجاله ومرافقيه،متصديا للسراق وقطاع الطرق،والاشقيائية الذين كان لهم سطوة كبيرة على مجتمع بغداد،وجراء جولاته الليلية تلك،فقد اطلق عليه اهل بغداد تسمية (سليمان ابو الليل) لخروجه الدائم في الليل وردع العتاة والمجرمين،وساد الامن والهدوء في عصره،واستمر الحال كذلك في بغداد حتى وفاته الوالي يوم ١٤/ مايس / ١٧٦٢، وكانت زوجته (عادلة خاتون) لم تطق فراق حبيبها (ابي ليلى) ،الذي عرفته واحبته،لم تبق بعد سوى (٦) سنوات فقط ..لتلحق بجوار زوجها في عام ١٧٦٨م ودفنت في دارها الواقعة اليوم في شارع النهر ببغداد،وتحديدا في بناية المحكمة الشرعية القديمة هناك ..

وقد اخبرني الاديب والباحث الفولكلوري (علي تايه الزبيدي)، انه قام بمراجعة العديد من دوائر الدولة المعنية ومنها (الاوقاف) حتى يخطرها بالامر والعمل على افراز وابراز قبر هذه المرأة البغدادية المحسنة في غرفة خاصة من غرف بناية المحكمة الشرعية،والذي بالامكان زيارته والاستدلال عليه من قبل الباحثين والدارسين لخطط وعمارة بغداد القديمة،وكانت مساع حميدة مماثلة قد بذلت من العلامة الشيخ جلال الحنفي،والاستاذ المرحوم امين المميز والمؤرخ الدكتور،عماد عبد السلام رؤوف،الذي بحث طويلا في.(وقفيات بغداد) قبل سنوات مضت واصدار من الكتب التاريخية المهتمة بالمعالم الاثارية البغدادية.

من تقاليد المجتمع العراقي

مراسيم الزواج في الموصل عند منتصف القرن الماضي

حسين شهيد

كانتْ مراسيم الزواج في منتصف القرن الماضي ذات مظاهر متسلسلة تبدأ بالأب الذي يستطلع رغبة الابن بالزواج أو يعتقد ان ابنه أصبح في سنٍ ينبغي ان لا يبقى بعدها عازباً، فيقرر تزويجه وقد تكون مفاجأة للابن الذي بلغ سن الرشد ولا يزال يعد نفسه صغيراً.. وكانت هناك عادات وتقاليد موروثة عبر الأجيال منها ان الابن لا يدخن في حضور الأب ولا يرتاد المقاهي التي يرتادها الأب.

وقد يعرض الأب على ابنه فكرة الزواج وليس للابن إلا الرضوخ للأمر الواقع وقد يكون للأب أقرباء أو أصدقاء لديهم بنات في سن الزواج عندئذ يوجه زوجته لاستطلاع تلك البنات.. من حيث الأخلاق والجمال والحرفة المنزلية التي يجيدونها علاوة على العمل المنزلي الاعتيادي.. وغيرها من الصفات الاخرى .. وأحياناً قد تكون الزوجة (الأم) هي التي وضعت عينها على بنت معينة واستقر رأيها عليها وجعلتها العروس المختارة لأبنها ولا يبقى عند الأب آنذاك إلا السؤال عن الأسرة لمعرفة سمعتها، فان ظهر شك فيها والتي يصل السؤال عنها حتى الجد السادس احجمت الأسرة عن خطبة هذه العروس.. وبعد ان يستقر الرأي لدى الأسرة تتقدم الأم مع زمرة من الأقارب والخبيرات لتفاتح أهل العروس في خطبة ابنتها ثم يبدأ أيضاً التدقيق والسؤال عنهم التدقيق ايضاً للتحقق من صلاحية أسرة الشاب ثم بعدها يسأل عن الشاب نفسه.. أخلاقه، حرفته، وعمله.. وبعدها تعقد عدة جلسات تتم فيها الخطبة و (القطع والوصل) ويثبت المهر (النقدية) المقدم والمتأخر وكان يقدر سابقاً بالليرات الذهبية وتكون عادة (أربعين ليرة متوسط) وتصل الى مئة ليرة في أحيان نادرة.

وبعد ان تنتهي مفاوضات النساء وهي الأصل يرسل أبو العريس وفداً من وجوه المنطقة لمفاتحة أبي العروس بالأمر.. ولا يملك الأب إلا القبول لأنه لديه معرفة عن طريق زوجته.. ويتم تحديد الأمور المتفق عليها.. وبعدها يقدم (النيشان) وهو سوار ذهبي أو حجل أو كردانه... الى غير ذلك من المخشلات الذهبية تقدمه أم العريس الى العروسة التي تذوب خجلاً وهي تستلم النيشان.

وبعد النيشان تكون أسرة العروس قد تسلمت المهر فتعد الجهاز ويسمونه (الحمالة) وغالباً ما تنفق الأسرة أضعاف المهر في سبيل اظهار حمالة البنت بمظهر لائق ويكدس في بيت العروس أولاً، حيث يطلع عليه الأصدقاء والجيران ويبدون آراءهم فيه قدحاً ومدحاً. ويتم بعدها عقد القران الأصولي في دار العريس ويتلى القران وتقرأ الفاتحة وتوزع المناديل والحلوى والعريس في هذا الموقف يذوب خجلاً.. ولا يحضر حفل عقد القران أخوة العروس وأبيها.

وعندما تنقل (الحمالة) من دار العروس الى العريس تصاحبها مظاهرة شعبية رائعة.. يتقدمها صبيان المحلة حاملين الاثاث الخفيف مثل النحاسيات والصواني والطشوت والصحون النحاسية والقدور والمزهريات...الخ، ثم تمر القطعات المحملة وهي أما ان تحمل على الخيل أو البغال أو الجمال وهي عادة الأثاث الخشبية والدواشك واللحف والزوالي.. وتزين هذه الحيوانات وتؤلف رتلاً طويلاً يسير من دار العروس الى دار العريس بين الهلاهل والأغاني تصحبهم جوقة موسيقية محلية. وبعد ذلك تبدأ حركة العروس الى دار العريس مشياً على الأقدام وسط عشرات من النساء.. وتنطلق الزفة في دار العروس حيث يتجمع بنات المحلتين والأقارب ويقفون ساعة يغنون ويهللون والعروس صامتة مطأطأة الرأس خجلاً حتى يحين موعد الحركة فتبكي الأم والأخوات على فراق العروس، ويسير الموكب السعيد الى دار العريس وسط أغاني وزغاريد النسوة حتى اذا وصلت الدار نحرت الذبائح تحت أقدامها.. وتتكرر الزفة بعدها يصلي العريس ركعتين وسط زفة اصحابه وهم يهتفون داعين له بالتوفيق الى ان يصل باب الدار وسط زغاريد النسوة ودعوات الأهل والأقرباء بالرفاء والبنين.

حمّامات البصرة.. التراث الحاضر الغائب

كاظم الزهيري

تعدّ الحمّامات الشعبية في العراق الى وقت قريب أحدى المرافق الحيوية التي يرتادها الناس في كثير من الأحيان ويزداد الاقبال عليها في الشتاء أكثر من الصيف لعدة أسباب منها: وجود كمية هائلة من البخار يتشبع بها جسد المستحم، فإذا كان يعاني نزلة برد وجد في الجو الدافئ ما يريحه ويخفف عنه، ومن افتقد الدفء في حمام داره قصد الحمّامات الكبيرة ووجد فيها ما يطلبه. ولما كانت السخانات غائبة عن الحمّام المنزلي في بيوت عامة الناس، وتسخين الماء يتطلب قدراً غير قليل من الغاز أو النفط، وجد العامة، ولاسيما في الشتاء الحمامات الأهلية الكبيرة بديلاً جاهزاً، ولعل بعضهم، ممن يستثقل القيام بعملية الاستحمام بنفسه، لقي باعبائها على (الدلاك) في الحمّام العام وهو رجل ماهر في تنظيف الجسد مما علق به من أدران وإعادة وأرضته الحيوية اليه.

ولي مع هذا المرفق الحيوي ذكريات وانطباعات أرى من المفيد سردها هنا اعتاد أبي، يوم كنا صغاراً، ان يصطحبنا معه الى الحمام أيام الشتاء الباردة.. كان يوقظنا فجراً فنمضي في اثره حاملين صرة ملابسنا النظيفة، الى حمّام (الحسيني) الذي ما يزال في مكانه الفريد في آخر سوق موسى العطية المسقف، المليء بدكاكين عطاريه الغارقة في روائحها اللاسعة، وعتمته الشاحبة.. وما ان نهبط دكات الحمام الإسمنتية الداخلية وتبتلعنا صالته المستطيلة بمصابيحها الواهنة ودفئها الخدر حتى نكون في عالم آخر غريب، فعلى جانبي تلك الصالة غرف ضيقة أشبه ما تكون بحفر مستطيلة واقفة في الجدار بأبواب خشب شربت من الأصباغ ما لم تكن تحلم به، وكل غرفة من هذه الغرف هي منزع شبه مظلم كأنه برزخ تخلع فيه ثيابك وتتعرى إلا من وشاح يلتف على خصرك ويستر نصفك الأسفل فتكون على استعداد لتمضي الى عالم آخر، ستقودك قدماك بخفٍ من خشب الى بوابة ثقيلة يصرّ صريرها وهي تنفتح برويّة على نفق من بخار يفضي بك الى جوف مستدير تتوسطه دكة حجرية مستديرة تمطر عليها غيوم البخار الساخن ويجلس عليها الرجال أنصاف عراة منتظرين ان تتساقط من أجسادهم أدرانها كما تتساقط الذنوب، قبل ان يستحموا ويتطهروا بالماء الساخن ويخرجوا ثانية الى العالم في دورة حياة نقية.. وسوف تسمع هناك، في عالم دفين مغلق كأنه قيامة صغيرة، في الضوء الشاحب المعروق أصداء الماء وأغاني المستحمّين ونقرات الطاسات النحاسية على الأحواض الصغيرة.. وحين تخرج من الحمّام دافئاً نقياً يستقبلك العالم كما يستقبل مولوداً جديداً.

وفي محافظة البصرة حمّامات كثيرة منها حمّام الحيدري وحمّام الحسيني وهو أقدمها ،يقع في سوق العطية في العشار، وحمّام السيف الذي أقفل أبوابه منذ سنتين ومكانه في البصرة القديمة مجاوراً جامعها الكبير، وحمّام الكرامة في العشار وتحديداً في منطقة البجاري، وحمّام الفيحاء الذي يقع مقابل سوق الخضار ولا يزال قسم من الناس يرتادون هذا الحمّام يومياً خاصة الحدادين ومن يعملون في تصليح السيارات لإزالة تراكمات الدهن والغبار عن أجسادهم.

وقد اعتاد الناس على ارتياد الحمّام لمعالجة الانفلونزا في الشتاء البارد من دون ان يعرف الكثير منهم السبب، ويعتقد ان تعرض المزكوم الى كمية من البخار الساخن سوف تفتح مجاريه التنفسية.

ويعد حمّام الحسيني للرجال، أقدم حمّام في البصرة فقد أسس منذ أكثر من مئتين وخمسين عاماً أي منذ العهد العثماني وفيه الكثير من الآثار والزخارف العثمانية والتركية زينت جدرانه مثل لوحة تمثل الهلال والنجمة التركيتين.. ويذكر ان مالكه السابق هو المرحوم عبدالرزاق السبتي، الذي كان له ملك كبير في سوق العطية، أما أهم الشخصيات التي كانت تزور الحمام في ذلك الوقت.. فمنهم قائد الجيش التركي وبعض الشخصيات المعروفة في متصرفية لواء البصرة كما كانت تسمى سابقاً.